ومن ذلك أمره لأربعة من صدور علماء دولته وهم القاضي أبو العباس أحمد ابن شيخ الجماعة الشيخ التاويد ابن سودة والشيخ عبد القادر ابن شقرون والشيخ محمد بن أحمد بنيس والشيخ الطيبين عبد المجيد بن كيران بشرح الأربعين حديثا النووية كل واحد منهم يقوم بشرح ربع منها، فامتثلوا، وشروحهم متداولة بين سائر الطبقات طبعت بفاس عام تسعة وثلاثمائة وألف، وكم أبرزت من تآليف بأوامر وجليت من نفائس الفوائد العلمية بإشارته الزكية، أثابه الله بالرحمة والغفران.

السلطان أبو زيد عبد الرحمن بن هشام

ولد عام ١٢٠٤ أربعة ومائتين وألف.

وبويع له بفاس بعهد من عمه السلطان سليمان في سادس وعشري ١٦ ربيع الأول عام ١٢٣٨ ثمانية وثلاثين ومائتين وألف موافق ١١ دجنبر سنة ١٨٢٢.

وتوفي بمكناسة الزيتون يوم الإثنين تاسع وعشري محرم فاتح عام ستة وسبعين ومائتين وألف موافق ٢٨ غشت سنة ١٨٥٩ وصلى عليه قاضي الجماعة بالحضرة المكناسية شيخه أبو عيسى المهدي ابن سودة المري القرشي ودفن ليلا بضريح جده أبي الأملاك المولى إسماعيل رحمهما الله.

كان له اعتناء بالعلم وذويه شأن سلفه الصالح واهتمام كبير بتنظيم التعليم وترتيب الدروس وهو ثاني المؤسسين لنظام التدريس بالقرويين في الجملة، وقفت له على ظهير في الموضوع أصدره لقاضي فاس إذ ذاك الشريف مولاي عبد الهادي هذا نصه:

الحمد لله وحده، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه (وبعده الطابع بداخله: عبد الرحمن بن هشام الله وليه):

ولد عمنا الأرضى الفقيه القاضي مولاي عبد الهادي وفقك الله وسلام عليك ورحمت الله وبركاته وبعد فقد بلغنا توافر طلبة العلم على العادة، وجدهم في الطلب

غير أنه قل التحصيل والإفادة، وذلك لمخالفة الفقهاء في إقرائهم عادة الشيوخ، وإعراضهم عما ينتج التحصيل والرسوخ، فإن الفقيه يبقى في سلكة سيدي خليل نحو العشر سنين وفي الألفية العامين والثلاثة لكثرة ما يجلب من الأقوال الشاذة، والمعاني الغريبة الفاذة، وكثرة التشعيب بالاعتراضات وردها، ومناقشة الألفاظ وعدها، ويخلط على المتعلم حتى لا يدري الصحيح من السقيم، ولا المنتج من العقيم، وفي ذلك تضييع الأعمار التي هي أنفس المتاجر بلا فائدة، وتعمير الأوقات التي يرتجى نفعها بلا عائدة، فتجد الطالب يرحل في طلب العلم من بلاده، ويتغرب عن أهله وأولاده، ويقيم المدة المتطاولة لا يحصل مع كثرة دؤبه على طائل، ولا يقف على محصول ولا حاصل، فترى الفقهاء يكثرون على المبتدي من نقول الحواشي والاعتراضات، وينوعون الأقوال والعبارات، حتى لا يدعي ما يمسك، ولأي سبيل يسلك، ويقوم من مجلس الدرس أجهل مما كان، ولا يجد زيادة مع بلوغه في نفسه الإمكان، وهذا يؤدي إلى ضياع العلم الذي هو ملاك الدين، ويحمل على عموم الجهل في العالمين، وما هكذا كان يفعل أهل الإفادة والتحرير، الذين يحرصون على نفع طلبة العلم رغبة فيما عند الله من الأجر الكبير، فقد كانوا يسهلون لهم طرق العلم واستفادته، ويرتكبون ما يقرب تحصيل العلم وزيادته، ويتنزلون لعقول الطلبة على قدر إفهامهم، ويحتالون على حصول الفهم والعلم للمتعلمين بلطيف عبارة كلامهم، حتى يحصل اللبيب على مراده في أقرب أوان، ولا يضيع عمره سبهللا من غير تحصيل ولا عرفان، إذ كان مقصودهم في ذلك الله ونشر العلم للعلم، لا التصفح والتمشدق الذي يحصل معه الخلل والملل، ولا ينجح معه لذي أرب أمل، وهذا من الأمر الذي يجب التنبيه عليه، ويتأكد في جلب أرباب المناصب الجنوح إليه؛ إذ في الحديث: الدين النصيحة لله ولرسوله ولكتابه ولأئمة المؤمنين وعامتهم، فبوصول كتابنا هذا إليك أجمع المدرسين وأرشدهم لما فيه المنفعة العامة، والفائدة التامة، وهو الاقتصار في

التقرير على حل كلام المؤلفين، وإفهامه للسامعين المتعلمين، مع التنبيه على ما فيه من خطأ وتحريف ومن غير إكثار هذر، ولا تشغيب بترداد اعتراضات وطرر، إذ المقصود هو حصول الفهم والإفادة، والمناقشة في الألفاظ إنما هي لغو وزيادة، وليست لأهل التحرير بعادة. وما تقدم قراءة النحو والبيان والمعقول، إلا لتحصيل الملكة التي يتوصل بها إلى فهم المنقول، فلا ينبغي في الفقه مناقشة الألفاظ، ولا نقل كل ما سوده الحفاظ، بل ينبغي الاقتصار على بسط المسائل وفصولها، وتقريبها للفهم بتقرير أصولها، فلا يجاوز الفقيه في سلكة خليل العام وإن طال ففي عامين، ولا يجاوز في الألفية الشهر والشهرين، كما كان يفعل ذلك جهابذة العلم من نقاده بل كانوا يسردون خليلا في أربعين يوما والألفية في أقل من ذلك ويحصل الطلبة من ذلك على علوم جمة، ومسائل مهمة، لا يحصلونها في هذا التماطل والتطويل، وعمارة الأوقات بما ليس عليه تعويل، ولينظروا في سيرة من قبلهم في التدريس والإلقاء، ويسلكون ما هو أقرب للتحصيل وأمسُّ بتسهيل الفهم والإقراء، فيهديهم فليقتدوا، وبأقوالهم فليهتدوا، ليستفيدوا ويفيدوا، ويبدءوا ويعيدوا، ويحصل الطلبة الغرباء في ذلك على مرادهم، ويدركوا ما يسر الله على قدر استعدادهم، والله ولي التوفيق.

ومن جملة الأمور الموجبة لقصور فهم المتعلمين وعدم نفعهم تقصير مجلس الإلقاء وخفته فلا يجاوز من أطال من الفقهاء الساعة مع أن من رحل للطلب من بلده ونيته تحصيل العلم يستغرق الأوقات، ويعرض عن الراحة واللذات، ولا يكون له غرض إلا في درس أو نظر، ليحصل في مطلوبه على الوطر، ففي الحديث منهومان لا يشبعان طالب علم وطالب دنيا؛ فينبغي حمل الطلبة على ما هو الأليق بحالهم من الدءوب والإطالة، ومواصلة الطلب وترك البطالة، والسلام وفي ١٢ محرم الحرام فاتح عام ١٢٦١ صح من أصله.

ومن آثاره بفاس تحصينها بالآلات الحربية، وجلبه لها من البلاد الأوربية، من ذلك

المدافع الموجودة بدار الآثار الفاسية الكائنة بقصر البطحاء المنقوش فيها بحروف بارزة ما لفظه: (هدية من سلطان فرانصة لسلطان المغرب سنة ١٨٤٦) وفي نقش آخرين هنالك أيضا ما لفظه: (بأمر أمير المؤمنين أيده الله ونصره صنع هذا المدفع السعيد على يد خديمه مصطفى الدكالي رزقه الله رضاه في ٧ جمادى الثانية عام ١٢٦١ ساولمنا مثن).

ومنها القبة المعروفة بقبة سيدي الحاج العربي الكائنة «في الدار البيضاء المعدة اليوم لنزول المقيم العالم (سفير فرنسا بالمغرب الأقصى) من أبي الجنود» وهي أي القبة، واقعة على الوادي هنالك من الجهة الغربية.

ومنها زيادته في مسجد الضريح الإدريسي عام ١٢٤٠ أربعين ومائتين وألف يدل لذلك ما توجت به منطقة زليج الأساطين الثلاثة المبنية بالآجر خارج القبة من الجهة الجنوبية في نقش زليج أسود، ولفظه:

انظر بعينك شذور الذهب ... لابن هشام المتقى المنتخب
مؤسس المجد شريف النسب ... (مبارك الاسم أغر اللقب)
من يديه زهر المنى يجتنى ... في وجهه بدر الهوى يرتقب
من سره هذا المقام الذي ... شيده على التقى للقرب
(شمر ١٢٤٠) لطاعة الاله به ... ومد للزوار كف الطلب
فهو الذي يعطي بلا منة ... إمامنا المنصور سيف الغلب

أشار للتاريخ المذكور بلفظة (شمر) وهي منقوشة في زليجة خضراء أشعارًا بما ذكر.

ويدل له أيضا ما هو مكتوب بوسط المسجد الذي أنشأ حول المشباك المطل لداخل القبة، ولفظه:

هـــذا مـــزار ومقـــام الاحـــترام قبلـــه بالـــشفاه وادع للإمـــام
(ابـن هـشام) قطـب مـن صـلى وصـام شـيد مـن إحـسانه هـذا المقـاه
مؤســس الهنــاء طــال واســتقام مــن زاره نــال المنــى حــاز المــرام
وقفــت في مــزاره قــصد اســتلام فراقنــي البنــاء في حــسن انتظــام
صــنع كــل صــانع وشي الــتمام مــا كــان ذا البنــاء في مــصر والــشام
مبينًــا لكــل حــين في ابتــسام تاريخــه (دوام ملــك ابــن هــشام)

وما هو منقوش عن يمين وشمال الداخل لهذا المسجد من بابه الجديد، ولفظه:

لأمثــال هــذا القــدر تبنــى المــآثر وترســم في وجــه الزمــان المفــاخر
أقــام (أمــير المــؤمنين) قواعــدي (سليل هشام) عام (جاء البشائر ١٢٤٠)
فــلا زال مــا بــين ســلاطين تــأثرًا كــما أنــني بــين المــساجد نــاثر

قال أبو القاسم الزياني في عقد الجمان: ابتدأ عمله نصره الله (يعني سيدنا الجد المترجم ابن هشام) بتشييد المسجد بضريح مولانا إدريس من الناحية الشرقية الموالية للقبة أكمل به تربيع المسجد من كل نواحيه ورتب بتلك الزيادة مدرسًا وواعظا وأحزابا تقبل الله عمله، وبلغه في الدارين قصده وأمله هـ.

ومنها إنشاء سقاية السبيل بحومة النجارين يدل لذلك ماهو منقوش في زليج أعلى قوسها، ولفظه:

خلــيلي مــر بالــسبيل لترتــوي بعــذب معــين مــن رحيــق معتــق
وتحــي نفوسًــا مــن زلال ســقاية قــد أربــت بنــشره عــلى كــل مرتــق
هنيئــصا مريئــا بــالفرات شربتــه بثغــر عــروس بــالعقيق مطــوق
وبالــسري المفــضال تــاج ملوكنــا ونجــل (هــشام) ذو الــصنيع المرونــق
حليــف النــدى والعــدل والفــضل والتقــى وطــود الهــدى والحلــم كنــز الموفــق

بطلعتـــه طابـــت نفـــوس بطيـــب ... سـليل حمـاة الـدين مـن بيـت متـق

كـــريم عفيـــف فاضـــل ذي مهابـــة ... فعـــول لأنـــواع الخيـــور مـــصدق

....الأصـــيل المحقـــق

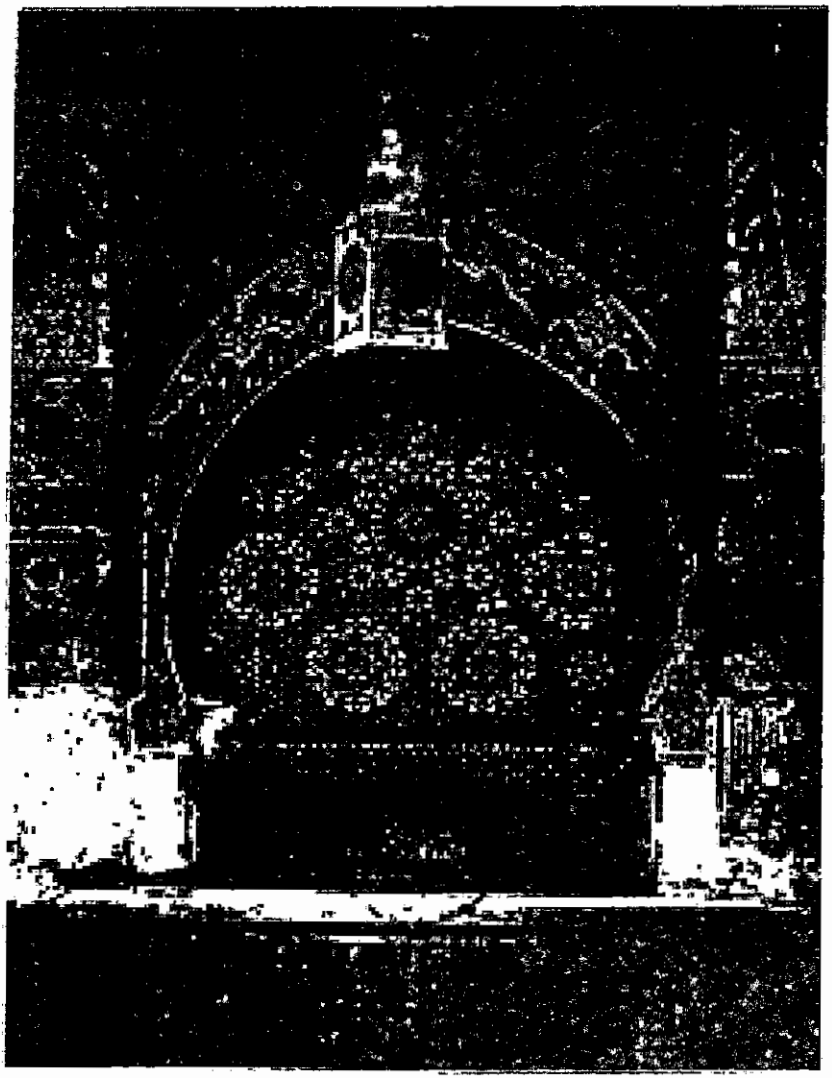

٨٤ بقاية المدارس

ومنها تجديد البرج الأثري العظيم الذي هو من آثار جده السلطان المولى عبد الله بقصره الذي أسسه بدار دبيبغ يدل لذلك ما هو منقوش على بابه في زليج أسود ما عدى الشطر الذي به التاريخ فنقشه في زليج أخضر ولفظه بعد البسملة والصلاة:

يـــا نـــاظرًا في بـــديع صـــنعي ... أجـــال طرفًـــا بـــه وردد

مـــآثر الجـــد في المعـــالي ... مـــولى ملـــوك الزمـــان جـــدد

مـــولاي (عبـــد الـــرحمن) مـــولى ... محاســـني في الأنـــام عـــدد

تـــاريخ مجـــدي عـــلاه شـــاد ... (فـــتح ونـــصر لـــه تجـــدد ١٢٥٠)

أطـــال رب الـــورى بقـــاه ... مؤيـــدا ســـالمًا مـــسدد

ومنها تأسيس منار زاوية الشيخ أبي محمد عبد القادر بن علي الفاسي شيخ شيوخ العلم في عصره.

ومنها البيوت المعدة لسكنى جيش آل سوس النازل بفاس وهي الواقعة في الجانب الغربي ببطحاء أبي الجنود المصطفة بالجدار المقابل للمسجد الجامع هنالك مع الخزين الذي كان معدًا لخزن علف الدواب السلطانية ومضافاتها واتخذ بعد مدرسه صناعية وقد كان بناء تلك البيوت تحت إشراف باشا المدينة البيضاء فاس الجديدة فرجي أحد وصفان السلطان أبي الربيع سليمان وربي نعمته يدل لذلك ما كتب به الباشا المذكور لوزير الحضرة السلطانية الرحمانية الأكبر أبي عبد الله محمد بن إدريس وإليكم لفظه بعد الحمدلة والصلاة:

«محبنا الأود الأرضى، الفقيه الاعز المرتضى، كاتب الأوامر الشريفة سيدي محمد بن إدريس رعاك الله وحفظك وسلام عليك ورحمة الله تعالى وبركاته بوجود مولانا أيده الله وبعد سيدي يرد عليك زمام صائر بناء البيوت لآل سوس بعد ما كنا وجهنا كناش الصائر لمولانا أعزه الله نحبك أن تطالع به علم مولانا أعزه الله، واعلم سيدي أن البناء

أعوزنا في هذا الفصل من أجل المطر وغلاء الجير والجائزة وهذه دور ونوائل بقصبة أبي الجنود كلها معتمرة بالبراني وغير خاف عنك أن القصبة كلها للمخزن فإن ظهر لمولانا أن تقوم على أربابها ويسكن بها ما بقي من آل سوس فذاك وإلا فنظر مولانا أوسع وقد وافق معنا السيد علال الشامي على ذلك، وأعلم سيدي أن عدد المتأهلين من آل سوس ٤٨٥ سكنوا منهم ١٤٥ وبقي بغير سكنى ٣٤٠ دون العزاب منهم وكناش الصائر الذي كنا وجهنا مع الناظر السيد أحمد الشديد لازلنا في انتظاره فنحبك أن تعتني لنا بأمره ووجهه لنا ولابد ونحب مولانا أعزه الله يأمر الأمين السيد علال الشامي بدفع ما بزمام الصائر الوارد عليك فإن أربابه لا زالوا يطلبوننا به ويرد عليك زمام دور القصبة ونوائلها لتعلم ما فيها من الدور والنوائل وعلى المحبة والمودة والسلام في ١٥ قعدة عام ١٢٦١. وصيف مولانا: فرجي أمنه الله». صح من أصله الموجود بملف أوراق البناءات الرحمانية المحفوظ بمستودع الأوراق الدولية بالحضرة السلطانية بالعاصمة الرباطية، وقد هدت البيوت المشار إليها في هذه الأيام الأخيرة وزيدت في توسعة الفسحة الجديدة التي أُعطيت اسم ساحة الباشا محمد بن البغدادي.

ومن ذلك إصلاح حمام القصور الإمامية وغيرها مما يحتاج إلى الإصلاح بها وذلك عام ١٢٦٩ تحت إشراف أمناء العتبة (القصور السلطانية) يدل لذلك ما قرأته في ملف الأوراق المذكورة، وإليكم لفظه:

«أحباءنا أمناء مولانا بالعتبة السعيدة أعاننا الله وإياكم وسلام عليكم ورحمة الله عن خير مولانا أيده الله ونصره وبعد، فيأمركم سيدنا أعزه الله وحفظه أن تصلحوا حمام دار مولانا المنصور بالله وما يأمركم بإصلاحه وصيفه بامسعودُ فإن سيدنا رعاه الله قدم له الأمر بذلك وأذنه فيه وعلى المحبة والسلام ٤ رمضان ١٢٦٩: موسى بن أحمد لطف الله به».

ومن آثاره سقاية مسد الشرابليين يدل لذلك ما هو منقوش بأعلاها، ولفظه:

تأمل في بديع حسن صنعي ... ترى حسنا يسر الناظرينا
أزيل صدى وأطفئ حر صدر ... وأمنح مائي كل الواردينا
أحيى من حييت به بشراكا[1] ... .
....العز المؤمل والبنينا
فما أسنى سقاية قد سقتنا ... شرابا لذة للشاربينا
تجلت عند (رشدنا) بخير ... .
.... لمولانا أمير المؤمنينا

أشار برشد إلى تاريخ بنائها بالجمل وهو ١٢٥٥.

وفي هذا السلطان قال العلامة الأديب أبو عبد الله محمد بن سميه بن علال السودي المري المتوفى عام ١٢٨٤ أربعة وثمانين ومائتين وألف:

كل ملوك العراق ... وملك مصر وشام
فما لهم من مرام ... لو حضر (ابن هشام)
أو فاض بحر نداه ... يكفيك قطر الغمام
أو قام للعدل يوما ... حل محل الإمام
أمام فضل ولكن ... فاق ملوك الأنام
فرد كل مُفضل ... عن الهدى بالحسام
عز كل مذل ... فبه جميع المرام
ما سمح الدهر قط ... بمثله في الكرام
من أول الدهر تتلى ... آياته بالمداوم
طابق الاسم المسمى ... فكان مسك الختام

---

(١) كذا.

الفصل الرابع

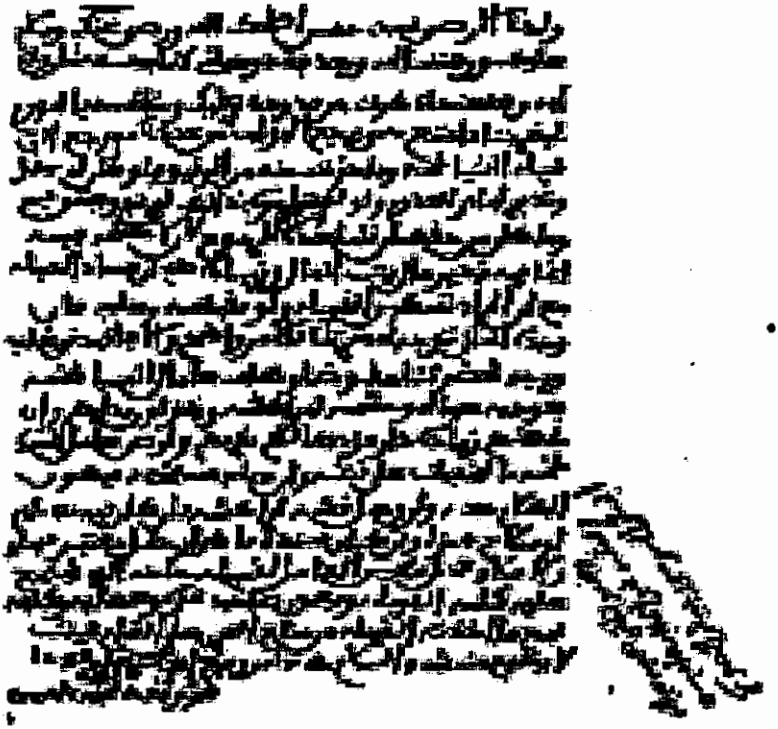

خط السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمن